الشيخ طاهر الجزائري

الدكتور نادر نظام تهرانى

من أدباء العرب المعاصرين

عاش الشيخ طاهر الجزائري في أواخر القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين فعاصر علماء و أدباء فترة البعث و النهضة في اواخر الحكم العثماني فكان من رواد هذه النهضة و المساهمين في مقارعة ذلك الحكم ساعيا إلى اماطة غشاوات الجهل و التخلف عن الأذهان. فكان العقل النابض و القوة المحركة الدائبة لبعث طبقة نيرة تحمل مشعل العلم و الحرية في البلاد العربية.

نسبه و أسرته

هو طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني الجزائري، هاجر والده الشيخ صالح من الجزائر إلى دمشق سنة ١٢٦٣ هـ١٨٥١/م[١] و يقال انه صحيح النسب إلى الامام الحسن بن علي عليهما السلام. ولم يكن يذكر ذلك في حياته.

صفاته

كان الشيخ طاهر حسن الطلعة، معتدل القامة، حنطي اللون، واسع الجبهة، أسود الشعر والعينين، ذالحية كثيفة، عصبي المزاج، سريع الحركة، واسع الخطوة.

نشأته و ثقافته

نشأ هذا المولود و ترعرع في كنف والده و تتلمذ عليه و كان والده عالماً و مفتياً للمذهب المالكي. ثم درس على علماء عصره يأخذ عنهم العلوم المختلفة فتعلم من شيخه عبدالرحمن البوشناقي اللغات العربية و الفارسية و التركية و مبادئ العلوم. كما درس على اساتذته من الترك العلوم الطبيعية و الرياضية و الفلكية و التاريخية. ولم يبلغ من العمر ثلاثين عاماً حتى اتقن اللغات الثلاث المذكورة و

نظم الشعر بالفارسية كالعربية و كان نظمه بالعربية أرقى من شعر الفقهاء و دون شعر الشعراء ثم تعلم الفرنسية و السريانية و العبرانية و الحبشية و البربرية لغة أهله الأصلية. ولكن الأستاذ الذي اثر به اعظم تأثير فغدا صورة له هو الشيخ عبد الغني الميداني المعروف بالغنيمي.[۲]

وكان الشيخ طاهر مغرماً منذ نشأته بجمع الكتب و هو لايزال فى دراسته الابتدائية. فيوفر من نفقاته الدراهم ليشترى بها كتاباً، و يطالعه بامعان و دقة. و هكذا حصلت له في النهاية مكتبة مهمة يقرب ما فيها ستة آلاف مجلد بينها كثير من الاثار و النوادر المخطوطة[۳].

شخصيته العلمية

لانكاد نجد في المتأخرين من علماء أواخر عصر الانحطاط من نبغ مثل الشيخ طاهر الجزائري الذي وعى ضروب المعارف و جمع بين الشريعة و العلوم المدنية، و احاط بتاريخ الملل و النحل، و تاريخ العرب و الاسلام و تراجم الرجال. و كان ذا مقدرة فائقة في المناقشات و المناظرات و ما كان منها بين العلماء في عصور الاسلام. و كان ذا حافظة قوية جذابة تلتقط بسرعة و لا تتخلى عمامر بها مع تطاول العهد. و كان اماماً في علوم اللغة و الأدب و اذا استرشدته في الوقوف على موضوع اطلعك من ذلك على مالا يتيسر لغيره حتى لتظنه لايعلم غير هذا العلم. و هو في اكثر العلوم خبير بصير.

اتصل الشيخ طاهر بعلماء عصره على اختلاف اديانهم و مشاربهم، فصحب الشيخ محمد عبده، و المستشرق غولد صيهر المجري اليهودي و غيره من المستشرقين مما ادى الى تخفيف حملتهم على الاسلام في كثير من الاحيان. و كان يقدم العون للمستشرقين الذين يعملون على نشر الاداب العربية و الاسلامية و يتصل باليهود و الارمن و الكاثوليك و البرتستانت و يناقشهم في كثير من عقائدهم و آرائهم.

يقول الاستاذ محمد كرد علي فيه: «فهو مجموعة نفيسة من العلوم و مكتبة سيارة ضمت في حناياها المفسِّر و المحدث، و الاصولي و الفقيه، و الفيلسوف و الاديب و اللغوي و الكاتب و الشاعر و المؤرخ و الأثري و الطبيعي و الرياضي و الفلكي و الاجتماعي والأخلاقي و برز في كل فرع من الفروع التي قدر له الاشتغال بها فعدَّ من أهل الطبقة الأولى من رجاله[۴]».

و يقول فيه الأستاذ احمد زكي باشا معزياً، و قد عاش معه ثلاثة عشر عاماً «كنت أرى فيه الأثر الباقي و المثال الحي و الصورة الناطقة لما كان عليه سلفنا الصالح، من حيث الجمع بين الرواية و الدراية في كل المعارف الاسلامية. و بين الدأب على نشرها بعد التدقيق و التمحيص... هذا الى التفاني في توسيع نطاقها بقبول ما تجدد عند الأمم التي تلقت تراث العرب باليمين... و هكذا قضى الشيخ عمراً أولا و ثانياً و ثالثاً في خدمة العلم. و الدعوة اليه بالقلم و اللسان[۵]».

اخلاقه و شمائله

كان الشيخ طاهر يتحلى بالصفات التي يجب أن يتصف بها كل مصلح عظيم فكان بسيطا في حياته

لايأبه بالمظاهر و الالقاب الرنانة و المدائح الكاذبة. و كان زاهدا عفيفاً لايقبل شيئاً من أحد بلا مقابل. وقد طلب اليه صديقه احمد زكي باشا و هو في مصر أن يوقع على طلب ليكفل له راتباً حسنا من الاوقاف المصرية فرفض بعنف في وقت كان اشد ما يكون إلى المال. و كان يبيع الكتب للمكتبات يغلب على ظنه أن الكثير من المطالعين سيستفيدون منها. و كان الى جانب ذلك يسعى لغرس هذه الأخلاق في نفوس طلابه و مريديه فلا يكتفى من نفسه ان يتحلى بها. و كان يدعوهم الى العمل متمثلاً بقول الرسول(ص) «ما أكل احد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده». كما نشأ الشيخ طاهر نشأة اسلامية، و آمن بالحديث الشريف «إن لبدنك عليك حقاً» فكان يمارس السباحة و أنواع الرياضة و كان يؤدي الصلوات في أوقاتها و يسامر أصحابه و جلساءه الهزيع الأول من الليل ثم ينصرف إلى خلوته للمطالعة و التأليف، ولاينام الا قليلا. و كان يستنكر الظلم و يعادي الظالمين و يأبى العمل مع الأعداء و المستعمرين و لايهتم الا بمصالح أبناء وطنه و كان مذهب الشيخ عدم اضاعة الوقت بالجدل و النقاش و القيل و القال، لاعتقاده بأنه مضيعة للوقت وداع الى التنافر و الاختلاف. يقول لطلابه: «أوكد عليكم في ان لاتشتغلوا بشيء من الجدل، فإن الجدل يبطئ عن العمل، و خذوا من عنان قلمكم لئلا يجري إلى غير مدى، و الاعتدال أقرب لحصول ما يبتغى[٦]». و كان الشيخ طاهر اجتماعيا خالط العلماء والادباء من الشرق و الغرب المسلم منهم و غير المسلم. و كانت جميع الطوائف تستلطفه و يعشق الحرية فلا يقيد نفسه بالوظائف الحكومية الا ما كان فيه فائدة لنشر العلم و الاصلاح. و كان دائم العمل و الجد ليس في حياته وقت للفراغ و اللهو و الترف و الكماليات. ولم يكن يتسامح مع أصحاب التمثيل و الموسيقى فكان يرى في هذين الفنين سلماً للهو و العبث. اما الرسم و التصوير و النحت فكان يتسامح فيها و ان لم تنج من غمزه و نقده أحيانا. و هو ما يخالفه فيه تلميذه محمد كرد علي بقوله «وصعب ان يتخلى المرء عن جميع ما أورثه إياه دمه و أهله و أساتذته»[٧] لكننا نرى الشيخ لا يستنكف عن نظم الغزل في أول حياته على عادة جميع الشعراء الا أنه ما لبث أن خلع عنه ثوب الغزل و مال الى الجد والوقار.

لقد كان الشيخ في اخلاقه صورة عن السلف الصالح محافظاً على شعائر الاسلام داعيا إليها. ولكنه رغم كل هذا فإن حياته لم تخل من بعض الأطوار الغريبة و العجيبة فبعد أن توفيت والدته ولم يبق له من يهتم بشئونه، اختار الشيخ اليسير من اللباس البسيط. فكان يلبس الثوب حتى يتسخ تماماً ثم يطرحه ويلبس غيره. و كانت مناديله من الورق و من الغرائب التي تروى عنه انه حل ضيفاً على صديق له في لبنان فأراد هذا الصديق ان يخدمه فأخذ خلسة ما كان الشيخ قد خلعه من ملابسه ليغسلها و أحضر له ثوباً نظيفاً من عنده، فغضب الشيخ و هدد و أوعد و طلب منه اعادة الثياب الوسخة، ولم يهدأ حتى استعادها. وله من مثل هذه المواقف الكثير. و ربما كان ذلك لضيق وقته و انشغاله بالمطالعة الدائمة. وكان من عادة الشيخ ان يحمل في رحلاته الكثيرة التي يقوم بها غذاءين: غذاء العقل و غذاء الجسم. فيصطحب الكثير من الدفاتر والاقلام و دواة و سكينا و ابرة و خيوطاً، و كميات من الخبز و

الجبن و التين و الزبيب. و كان مولعاً بالتدخين فيحمل منه مؤونة عدة أيام. وقد فضل العزوبية فلم يتزوج.

طلابه و تلاميذه

كان الشيخ طاهر علاوة على كل ما ذكرناه لايخلو من غرابة في الأطوار فكان لايتبنى طلابه الابعد اختيار دقيق لعلمه أنّه لن يقدر على ملازمته الا من آمن بآرائه و وطن نفسه على تحمل كل الصعاب في استصحابه. وكان أحفى طلابه محمد كرد علي و سعيد الباني و مراد الشطي و الامير عبدالرزاق و احمد النويلاتي.

ومن الطلاب الذين كانوا يترددون عليه بين وقت و آخر و ينهلون من معينه: شكيب ارسلان و فارس الخوري و الشهبندر و جمال القاسمي و جميل الشطي و لطفي الحفار و رشدي الحكيم و عزالدين التنوخي، و بهجت البيطار و حسني الكسم و شكري العسلي و سليم الجزائري و محب الدين الخطيب.

وفيهم كما نرى كبار السياسيين و الأساتذة الجامعيين و الكتاب و المؤلفين.

منجزاته

اهتم الشيخ طاهر بالتعليم فقد كان يدرك قيمته في النهضة التي تواجهها البلاد آنذاك و كانت العقبة التي يواجهها لرفع مستوى الدراسة في المدارس تقرير البرامج وايجاد الكتب التي تحقق تلك المناهج. فعمل على وصفها بنفسه و ألف عدداً من الكتب الأولية في مختلف الفنون منها: الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام (في الطبيعيات) و مدخل الطلاب إلى علم الحساب (في الرياضيات) و الجواهر الكلامية في العقائد الاسلامية (في التوحيد). وارشاد الألبّاء إلى طرق تعليم الف باء (في التهجية) و غيرها.

و وجه همه إلى الكتب و المكتبات فبذل جهوداً جبارة في تأسيس المكتبة الظاهرية بدمشق وسعى لجمع المخطوطات النفيسة التي كانت مبعثرة في مكتبات المدارس، تتناولها الأيدي بالاختلاس. فاقترح على المسؤولين أن تجمع في مكان واحد. فتم نقلها إلى قاعدة لاتزال بها حتى اليوم، و ذلك في ۱۲۹۶ هـ۱۸۷۸/م و جعلت لها الحكومة ادارة خاصة و قيمين.

وقد عهدت اليه الحكومة بالتفتيش على خزائن الكتب في سورية و لواء القدس. فقام بهذا العمل خير قيام، و سعى لاقناع المخلصين في القدس حتى أسسوا المكتبة الخالدية، و قد لقي الشيخ في سبيل ذلك عنتاً و ارهاقاً، حتى لقد هدد بالقتل ان لم يكفَّ عن ذلك الأمر، ولكنه لم تهن عزيمته، ولم تلن قناته.

ولم يكتف الشيخ بذلك فقط بل بذل جهوداً جبارة في الكشف عن المخطوطات العربية و عمل

على نشرها، و كان شعاره «لاتتأخر في نشر مخطوط، و اذا اردت ان تحتج بالاتقان فالاتقان لاحدً له و عليك ان تنشره، والاتقان يتم في متسع الزمان». وهو ما قاله لصديقه و زميله أحمد زكي باشا حينما تأخر في نشر بعض المخطوطات العربية الثمينة بعد ان طلب ذلك منه.

تأليفاته

كان الشيخ طاهر الجزائري محيطاً بأكثر علوم عصره متعمقاً فيها و كان من البديهي أن يخلف الكثير من المؤلفات التي تتناسب مع عظمته العلمية. ولكن الشيخ كان يميل الى القراءة والمطالعة ليستخدم ما يتعلمه في التوجيه خلال رحلاته و اجتماعاته و جلساته، و قد اكثر من التأليف. ولاشك في أن عصر الشيخ المضطرب و الاوضاع الاجتماعية المتدهورة هو الذي دعاه الى انتهاج هذا السبيل. و بالرغم من ذلك فقد ترك من المؤلفات و التصانيف و التذاكر و الكراريس ما ينم عن علمه الواسع و فكره العميق منها:

١. بديع التلخيص و تلخيص البديع. منظومة مع شرحها. طبعت في سورية سنة ١٢٩٦هـ
٢. تدريب اللسان على تجريد البيان. طبع في بيروت. سنة ١٣٢٥هـ
٣. تسهيل المجاز إلى المعمى و الالغاز، طبع في سورية سنة ١٣٢٥هـ
٤. التقريب لاصول التعريب، طبع سنة ١٣٢٥هـ
٥. التمرين على البيان والتبيين. طبع في سورية، سنة ١٣٢٥هـ
٦. تمهيد العروض الى فن العروض. طبع في سورية، سنة ١٣٠٤هـ
٧. توجيه النظر إلى أصول علم الأثر. طبع في مصر، سنة ١٣٢٨هـ
٨. جدول الحروف العربية القديمة و الحديثة و الهندية و اليونانية و فيه الكلام على الرسل و حركات الشكل.
٩. الجواهر الكلامية في العقائد الاسلامية. طبع في دمشق. سنة ١٣١٣هـ
١٠. حدائق الافكار في رقائق الأشعار، طبع في دمشق، سنة ١٣١٣هـ
١١. الحكم المنثورة. طبع في مصر.
١٢. دائرة في معرفة الأوقات و الايام. طبع بدمشق.
١٣. رسائل في علم الخط. طبع في مصر.
١٤. شرح خطب ابن نباته. طبع في مصر.
١٥. شرح خطبة الكافي بحث في أصول اللغة و نشأتها و اشتقاقها، طبع في مصر.
١٦. عمدة المغرب و عدة المعرب. قصيدة. طبعت في دمشق.
١٧. الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام. طبع في دمشق.

۱۸. مدخل الطلاب إلى علم الحساب. طبع في دمشق.
۱۹. مد الراحة لأخذ المساحة. طبع في دمشق. سنة ۱۳۱۰هـ
۲۰. منية الأذكياء في قصص الأنبياء. مترجم عن التركية. طبع في دمشق سنة ۱۲۹۹هـ
۲۱. ميزان الافكار في شرح معيار الأشرار. طبع في دمشق. سنة ۱۳۰۰هـ
۲۲. ارشاد الالباء إلى طريق تعليم ألف باء. طبع في بيروت سنة ۱۳۲۱هـ
۲۳. اتمام الأنس في عروض الفرس.
۲۴. مختصر أدب الكاتب لابن قتيبة.
۲۵. مختصر أمثال الميداني.
وله من المخطوطات:
۲۶. التفسير الكبير.
۲۷. المعجم العربي.
۲۸. السيرة النبوية.
۲۹. جلاء الطبع في معرفة مقاصد الشرع.
۳۰. المنتقى من الذخيرة لابن بسام.

وله ايضاً بعض المجموعات التي اختارها اثناء رحلاته و استخلصها من بطْون الكتب و هي معلومات نادرة لاتزال محفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق و تعرف بالتذكرة الظاهرية. و تحتوي:
التذكرة الطاهرية و تقسم إلى أربعة أقسام:
الأول: حواش على تفسير البيضاوي في أربعة مجلدات. وقد عمد الشيخ الى نسخة مطبوعة من تفسير البيضاوي فكتب على اطرافها هوامش و تعليقات. و اكثر ما كان يكتب هذه الهوامش على كراسات يدسُّها بين الصفحات المطبوعة، و يثبتها بخيوط متينة، و ربماكتب شيئاً لاعلاقة له بالتفسير و ذلك لحرصه على تسجيله و حفظه عندما يعرض له.
الثاني: قراطيس بيضاء كبيرة مطوية طولاً، وقد عزّزت صفحاتها بالحبر الأحمر و كتب فيها بخط واضح مسائل مختلفة من العلوم الدينية و فيها بياض تركه المرحوم لالحاق بعض المسائل عند الحاجة و تبلغ صفحاتها الفا و مائتي صفحة.
الثالث: كراريس مستقلة تبلغ نحواً من بضعة و ثلاثين و مائة كراسة مختلفة الحجوم، كتبها الشيخ في مدن متعددة و أزمان مختلفة و مواضيعها متعددة، و فيها فوائد نادرة.
الرابع: صفحات ورق من دفاتر دوائر المالية عمد إليها الشيخ فطواها و ملأحقولها و فراغاتها بجداول و تقاسيم في علمي اللغة و الصرف وهي قديمة ممزقة لايمكن أن يؤلف منها كتاب

بل يستفاد منها فوائد افرادية. ولقد ترك الشيخ فيها زبدة خمسين عاماً من افضل ما قرأ من مختلف الكتب واروعه[٩].

وفاته

كان الشيخ طاهر الجزائري في مصر حينما شعر بدنو أجله و الحاح المرض عليه ففضل أن يموت في مسقط رأسه فغادر مصر بعد أن اقام فيها ثلاثة عشر عاماً[١٠] إلى دمشق و مكث فيها أربعة أشهر عاكفاً على الدرس و المطالعة و الدعوة الى الخير و العلم والعمل حتى دعاه داعي المنون فلباه في الرابع عشر من ربيع الثاني سنة ١٣٣٨هـ الموافق للثامن من كانون الثاني سنة ١٩٢٠م. فشارك في تشييع جثمانه العلماء والأساتذة والطلاب و مريدوه وكبار موظفي الدولة و دفن في مقبرة ذي الكفل في سفح جبل قاسيون.

ويروى انه حينما كان على فراش المرض في مصر و برح به الألم واشتد طلبه من طبيبه ان يريحه من الحياة قائلاً له إن في الشرع مايبيح ذلك. اضطرب الطبيب واخلد إلى الفرار مقسماً الا يعود الى تطبيب الشيخ لما سمع منه من الافتاء.

حياة الشيخ السياسة

كما كان الشيخ انقلابياً في نضاله الاجتماعي والعلمي فقد كان من دعاة الانقلاب و الثورة ضد الحكم التركي و مظالمه في العهدين الحميدي والاتحادي. ولم ينتسب الى اي حزب من الاحزاب السياسية أو جمعية من الجمعيات أو طريقة من الطرق ولكنه كان مع كل من ينشد الخير و خدمة المصلحة العامة منهم. و كان قد علق بعض الامال على الاتحاديين في اول الأمر و قبل ان يصل إلى درجة اليأس منهم سعى الى تقريب و جهات النظر بينهم و كان يرى ان هناك حزبين على طرفي نقيض يتجاذبهما الافراط و التفريط. و يتمنى أن يجنب الدولة والامة كثيراً من الكوارث والويلات كما قال في احدى رسائله لصديق له[١١].

و يبدو أن الغربيين استغلوا هذا النزاع الحزبي فقضوا على الدولة العثمانية. و هنا لابد من الاشارة إلى علاقة الشيخ طاهر بالانجليز فرغم انه لايجوز أن يتطرق الشك إلى الاذهان باخلاص الشيخ لأمته و بلاده لكن الواقع السياسي الذي تجلى في ظلم الاتراك للعرب و احتقارهم الشديد لهم من جهة و تظاهر الانجليز بصداقتهم لهم من جهة أخرى دفع الشيخ الى صداقة الانجليز ولو أطال الله بعمر الشيخ و رأى سياستهم في البلاد العربية ماذا كان سيفعل. لاشك في انه كان سيندم على هذه الصداقة و يلعنها.

ولابد من القول أخيراً ان العصر الذي وجد فيه الشيخ طاهر عصر مضطرب في سياسته و ثقافته و اقتصاده يدعو للثورة والاضطراب النفسي و اذا أضفنا إلى ذلك ثقافة الشيخ طاهر المتنوعة من دينية عميقة و ثقافة أوربية حديثة وجدت لدينا القناعة الكافية بأن ذلك التعقيد النفسي و الثورة العارمة عند الشيخ طاهر مصدرهما خارج عن مقدوره و لن يستطيع أن يكون غير ذلك. فكان صورة لهذا العصر.

الهوامش

۱. لويس شيخو. الاداب العربية، بيروت، ص ۹۶.
۲. أحد معاصريه.
۳. زكي محمد جاهد، الاعلام الشرقية دارالطباعة المصرية الحديثة.
۴. مجلة المقتطف. ج ۵۶، ص ۲۹۷.
۵. مجلة المجمع العلمي، ج ۷، ص ۵۸۳.
۶. لويس شيخو، الاداب العربية، ص ۹۶.
۷. محمد كرد علي، كنوز الأجداد، مطبعة الترقي بدمشق، ۱۹۵۰م، ص ۴۲.
۸. محمد كرد علي، كنوز الأجداد، ص ۸
۹. مجلة المجمع العلمي بدمشق، ج ۳، ص ۱۷۱.
۱۰. ن. م، ج ۸، ص ۵۸۲.
۱۱. ن. م، ج ۸، ص ۶۷۰.